

ملاحح اسطورية في الشعر الجاهلي

محمود شكيب انصاري*
عاطي عبيات**

الملخص

تعتبر الاساطير حكايات مقدسة وقصص خيالية لشعب او شعوب، و ثراثاً متوارثاً لها صلة بالعقائد الدينية و الظواهر و الكوارث الطبيعية و تفسيرها، و واقع ثقافي عن الموت و الحياة الأخرى للشعوب كما تُعدُّ رافداً في حفظ القيم و الطقوس و العادات و التراث الحضاري عبر الاجيال لترسيخ الثقافة و منحها قوة التثبيت التي لا ضيرَ عنها لضمان استمرار الثقافة بحيويتها و تأصيلها عبر ارتباطها بجذورها. فكانت الاسطورة عند العربي الجاهلي تُمثل علاقته بالكاننات و آرائه في الحياة و مشاهداته و كانت مصدراً لبنات افكاره الهمة الشعر و الادب.

الكلمات الدلالية: الاسطورة، الشعر، الخيال، تصوير الحيوان، آلهة .



المقدمة:

الميثولوجيا [علم الاساطير] هي من العلوم الحديثة التي عنيَ بها العلماء و المفكرون و هذا العلم لم يتبلور الا في اواخر القرن الثامن عشر على يد الأوروبيين، متناولاً اساطير التكوين و الآلهة و الابطال و المعتقدات و الطقوس الدينية و ماشابه ذلك، أما قراءة علماء العرب في القرون الماضية تختلف الى حد كبير عما

* بتاريخ ١٠/١٢/٨٨٧ م - ١٣/٨/١٤٠٩ هـ - ١٠/١٢/٨٨٧ م - ١٣/٨/١٤٠٩ هـ - ١٠/١٢/٨٨٧ م - ١٣/٨/١٤٠٩ هـ
m.shakibansary@yahoo.com

** طالبة في دورة دكتورا بجامعة الرازي - كرمنشاه

ذهب اليه علماء الغرب و ذلك بسبب الرسوبات الدينية و سيطرة افكار المدارس الدينية اذا صح القول، حيث أخذوا يفسرون تلك الظاهرة «بالترهات» و «الاكاذيب» و «الاحاديث الملفقة». و هذه التعاريف و النعوت للأسطورة البستها ثوباً مشوباً بالازدراء مما حال دون وضع الاسطورة العربية بموضعها الصحيح على انها روافد معرفية و رمزية و ثقافية فعدها الكثير، إنها خرافات تافهة لاتصلح سوى للتسلية و التهميش. و هذا المقال عالج تشكيك البعض و كرس فكرة الاسطورة لدي العرب و رد على من دأب ان العرب لم يكن لديهم اساطير و إن عقليتهم ليست قادرة على توليد الاسطورة مستعيناً بالشعر الجاهلي بصفته الرافد الرئيس في هذا الصدد و تركيزه على الاشارات القرآنية الدالة على وجود الاسطورة لديهم، ناهيك عن تناوله للمعتقدات و الطقوس الزاخرة بالعنصر الاسطوري السائدة آنذاك للحيلولة للحد من الاصوات الداعية لالغاء و اهمال فكرة تأصيل الاسطورة في الادب العربي.

الاسطورة في اللغة و في الاصطلاح:

يقال في اللغة سَطَرَ الكتاب : سَطَرَهُ و سَطَرَ الورقة : رَسَمَ فيها خطوطاً با لمِسْطَرَة و سَطَرَ العبارة : أَلْفَهَا و يقال : سَطَرَ الاكاذيب.

و سَطَرَ علينا : قَصَّ علينا الأساطير؛ و الاساطير: الاحاديث لانظام لها و الاساطير ايضاً الاباطيل و الاحاديث العجيبة و في التنزيل العزيز «إن هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ» و احدها: إِسْطَارٌ، إِسْطِيرٌ، و أسطوراً!^١

و في الاصطلاح الاسطورة : حكاية يسودها الخيال و تبرز فيها قوي الطبيعة في شكل آلهة او كائنات خارقة للعادة، فهي اقوال و احاديث منمقة و مزخرفة كثر استعمالها في التراث الشعبي لمختلف الامم و يستخدم الادباء الاسطورة للتعبير عن فكرة و عن معتقد ما.

تُشكل الاسطورة التراثية التاريخية حيزاً زمانياً و مكانياً في تاريخ الحضارات

١. الوسيط، معجم، مادة «سَطَرَ»

الانسانية المتعاقبة و المتزامنة و بالتالي في تاريخ الفكر البشري منذ تشكيلته، فما من شعب من شعوب او امة من الامم الا و لها أساطيرها و خرافتها الخاصة بها، فنشأة الاساطير ترتبط بفجر الانسانية، و قدكان الوعي الاسطوري يُؤمّنُ لاصحابه مقداراً من التناغم و التجانس و المواءمة بينهم و بين الكون و عناصره و لكن هذا الوعي بدأ ينحسر رويداً رويداً منذ بزغت النظرة العلميّة الى الكون و كلما زادت سيطرة الانسان على الكون بالعلم و الدارسة تقلصت و انحسرت النظرة الاسطورية و تُعرّت الكائنات من قداستها.

الاسطورة و تعاريفها

إنّ العلماء ذهبوا في تعريف الاسطورة مذاهب شتى، فمنهم من رأى في الاساطير حكايات القدماء في الدين مثل «زينوفانيس» و رأى سقراط أن صفات آلهة يمكن اكتشافها من تحليل اسماء الاصنام و منهم من قال إنّ الاسطورة هي صورة متحركة. و منهم من ذهبَ أن الاسطورة هي صورة من صور الفكر البدائي حينما كانت مسطورة او مطبوعة في الواح الازهان على حد قول الاسطورة الاغريقية. و منهم كرايرتسن سمث حدد الاسطورة بانها مستلهمة من العائدات و الشعائر لا العكس. و منهم من رأى «كالويس اسنيس» بأنّ الاساطير تشكل عنصراً مهماً لدين القدماء. و من هذا يتبين أن كل واحد من العلماء اختار نوع من انواع الاساطير و لم يضع تعريفاً جامعاً و مانعاً للأساطير بأسرها.

و نلخص القول بانّ الاسطورة تنبثق من حالة ذهنية يلعب فيها الوهم و الخرافة و الوسواس النفسانيّة و هي تمتيل لعلاقة الانسان بالكائنات و فى ضوء هذا نرى الاسطورة عند العرب الجاهليين تُمثّلُ آراءهم و مشاهداتهم في الحياة و مصدرأ لبنات افكارهم؛ الهمتهم الشعر و الادب و كانت الدين و التاريخ و الفلسفة معاً.

فاذا أردنا أن ندرسَ جذور الاسطورة و الاساطير في الشعر و الادب الجاهلي، لأبْدُ ان يكون لنا المام تامل بكامل تفاصيل و مناحي الحياة و الاحداث التي مرّ بها الانسان الجاهلي و كانت تُشكلُ له موروثاً و امتداداً لتاريخه و حضارته السحيقة.

فالبحت عن الاساطير العربيّة بشكل منهجي و علمي لم يكن سهلاً لأنّ الروافد التاريخية و المراجع في هذا الشأن قليلة او تكون شبه معدومة و غير موضوعيّة. فالادب و الثقافة العربيّة قد تعرضت للضياع بسبب عدم وجود الكتابة عندالعرب، لأنّ العرب أمّة اميّة تعتمد على الذاكرة لاعلى التدوين و معظم ماوصل الينا عن تاريخ الجاهليّة و عن اساطيرهم و احاديثهم العجيبه الخارقة للعادة وصالّ عبر النقوش و الرواة و اخبار متقطعة مبعثرة مثل الاساطير البابلية التي اكتشفت في الالواح السبعة، و نقوش الساميين الشماليين.

الشعر الجاهلي

عرف العرب منذالقدم كثيراً من فنون القول الشعريّة و النثرية، بيد أن شهرتهم في الشعر هي التي فاقت حتى قيل: «الشعر ديوان العرب» و ما ذلك الا لأنّ الشعر هو السجل الحقيقي لحياة العرب العامة و الخاصة في العصر الجاهلي. فالشاعر الجاهلي بحسب فطرته جعل من الشعر انعكاساً لحياته البدوية في الاخلاق و العادات و الآراء و المعتقدات فالشعر الجاهلي تناول و صفاً دقيقاً للحياة العامة و وصف مظاهر الطبيعة و احوال البيئة، كالجبال و السهول و الوديان و الاشجار و النباتات و الحيوانات و الطيور، و السفن و البحار الى جانب وصف الاحداث الكبرى مثل ايام العرب و حروبهم و ظروف معيشتهم في سلمهم و تناول ايضاً حياتهم الخاصة و عبّر عن احساسهم و مشاعرهم الصادقة و خلجات نفوسهم في ظروف الحياة المختلفة، السعيدة الهانئة، و البائسة القاسية؛ و طالما كان الشعر العربي بذكر تلك الحياة و امتداحها و صبغها بالوان من الاخيلة الشعريّة، كما لم ينس هذا الشعر نصيبه من الحكم الرائعة يتغنّى و الافكار القيمة، فالشاعر الجاهلي تكلم عن كل شي احس به و شاهدّه و كانت اوصافه و تصاويره و تشابيهه مستمدة من هذه المظاهر التي وقعت تحت بصيره، و كان مخزونه الشعري منبثقاً من صميم البيئة التي نبت فيها فالشاعر كان يحاول ان ينقل الصورة التي تلوح في أفقه نقلاً اميناً. يوجد في الشعر الجاهلي إشارات الى تاريخ و عادات و خرافات و اساطير غير واضحة و لامشروحة شرحاً وافية، فاذا لم يكن قارى الشعر مطلعاً على تاريخهم و اساطيرهم و

عاداتهم بقي هذا الشعر غامضاً عليه و إن كانت الفاظه واضحة، و من ذلك قول لبيد:
لعمرك ماتدري الضواربَ بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع
فاذا لم يكن قاري هذا الشعر مطلعاً على عادات الجاهليين في «الزجر» يبقي البيت
غامضاً. فقد كان من عاداتهم، اذا أرادوا سفراً او عملاً، أن يتكلموا على القدر و
الحظ، فيأتون بحجارة و ينتظرون طيراً يحط، فيضربونه بالحصى، فاذا مال الى جهة
اليمن استبشروا و تفاء لوا و ساروا في عملهم و اذا مال الى جهة الشمال او ناحية
الشام تشاءموا و تركوا هذا العمل، و ردود افعالهم تنبو بجذور خرافة او اسطورة
سحيفة لديهم.

فالأطلال و الضعائن و حيوانات الصحراء التي تتحرك جميعاً في القصيدة الجاهلية
إشارات اسطورية في خريطة الأدب الجاهلي، فتكون لنا العالم الواقعي الأسطوري
في آن واحد، و هكذا جعل الشاعر الجاهلي العالم كله رموزاً و عبّر عن قدرته
للتعبير عن جميع مظاهر الحياة الجاهلية، قيمها و تقاليدها و أساطيرها و اختزنت
عقلية الشاعر الجاهلي بصور و لوحات تعود الى عصور ما قبل التاريخ فظلت تعوم
في كثير من الاحيان وسط عواطف متخيلة و آمال و اوهام و احلام و تجارب سحيفة
أخذ يلقح بها عقليته.

و لا شك ان هذا المخزون اللاوعي كان يظهر في نتاجه الشعري و يؤيد هذا الرأي
ما قاله الدكتور احمد كمال زكي: «فالإنسان على مدى التاريخ يسجل تجاربه، او ما يبدو
منها خطيراً و مؤثراً في حياته، هو في اي مجتمع يخزن في ذهنه اشياء عن شتى
الأطوار التي مرّ بها هو و أجداده.

ولقد يلح عليه بعض المخزون بما يدل على وجوده في دائرة الشعور من حيث هو
مكوّن لحقائق قائمة، بينما يظل بعضه الآخر في الاعماق محتفظاً بكل ما وعته الانسانية
منذ ما قبل العصر الحجري القديم. و من حين الى حين يندفع الى السطح بحيث يمكن أن
يشاهد و يقرأ»^١

أفاق الحضارة الإسلامية، العدد «الخامس و العشرون»، ربيع و صيف ١٣٨٩ هـ. ٣١

١. زكي، كمال، احمد، الاساطير، دراسة حضارية مقارنة، ص ٢٦٣

قدرة العقلية العربيّة الجاهلية على توليد الاسطورة

فالاسطورة آراء البداوة التي تطريق ذهن الجاهلي و تخطر بباله و تختلج في قلبه لحل معقداتها، فهي قديمه العهد و بعيدة عن الوضوح، و محتوية على عناصر عدّة إلى حدّ أنّهُ من المستحيل أن نرى فيها سبباً لكل ناموس من نواميس الحياة الفكرية و الدينية. و بعدهذه الجولة السريعة السؤال الذي يتبادر الى الذهن هل كانت للعرب أساطير و هل نسجوا شيئاً في هذا المضمار؟ او بقوا متخلفين عن الامم التي ساروا في ركبها؟ وبدء ذي بدء لأبّد من القول أنّ الاسطورة من حيث انها تُعتبر طوراً او قفزةً من قفزات النمو و الارتقاء العقلي، كانت موجودةً عند جميع الامم و النحل بلا استثناء. فلاضيراً اذا قلنا أنّ العرب عرفوا الاسطورة منذ زمن بعيد و نسجوا اساطير مختلفة، لأنهم تأثروا بشعوب و ملل مختلفة إثر التجاور و الترحال و تبادل الوفود التجارية و غيرها بكثير من العناصر الذهنيّة الممهدة للخرافة و الاسطورة و عبادة الاوثان فأثرت على عقليتهم . و قول رابرتسن المفكر الشهير يُؤيدنا ذهبنا اليه « و انما الامم التي تشعبت من اصل واحد قد تشترك في اتخاذ العقائد و الشعائر الوراثة، دينيّة كانت او غير دينيّة »¹ فالامّة العربيّة لم تكن منعزلة عن العالم بل كانت في اتصال بمن حولها مادياً و ادبياً و ان اختلفت احوالها الاقتصادية و الاجتماعية. فالاسطورة كونٌ يدور رحاها حول الخيال و الاقوام الذين سخرّوا الخيال استطاعوا أن يأتوا في ادبهم بحلّةٍ من الاشعار القصصية او الملاحم، و لكن الشاعر الجاهلي و ان تضاعل عنده الخيال و بني تشابيهه على خياله السطحي ولكن استطاع ان يرسم بريشته صوراً حيّة و خلاصة في لوحاته الغزليّة و لوعاته المأساوية في مضمار الطلل و الفخر و الحماسة و الوصف و الرثاء.

الخيال باكورة الاسطورة

الخيال تلك الروح الفنية المجنحة، التي تقتنص خطوط الصورة و تجمع ألوانها، تُؤلفُ بين اجزائها لتقدمها لوحات غنية القسمات، منسجمة الخطوط، بديعة الألوان، مثيرة الظلال

توحي بالمعاني الفنية، و تطلق هالات الأفكار، و تشيع جواً عبقاً مثيراً من المشاعر و الأحاسيس.

فالخيال طاقة حيّة لاتعرف الفتور و لقد أثارت بهذه الخصيصة إعجاب الفلاسفة و المفكرين، فرأى فيها ابن عربي أكبر برهان على قدرة الله « فليس للقدرة الالهية فيما اوجدته اعظم وجوداً من الخيال، وبه ظهر الاقتدار الهلي، فهو اعظم شعائر الله على الله»^١ فالخيال إذاً هو القدرة على تمثّل الصور في فضاء النفس، فالبيئة لها أثرٌ عظيم في طبع الصورة في مخيلة الشاعر، فالصحاري الشاسعة و شظف العيش و الاطلال و الانواء و النجوم و المعارك و الاوثان و الحيوان و غيرها صور محسوسة تتحرك في شريط الفكر الجاهلي.

فالخيال هو التعبير الادبي الذي يجول في مخيلة الشاعر لآئنه ترجمان عاطفته و ريشته الذي يرسم لوحته الفنية بها بهدف خلق و ابداع صورة متكاملة متلوّنة بمعاناته و احاسيسه ذات اثاره و متعة. فالخيال كما يقال هو مفتاح الاسطورة و الخرافة و الابداع و اساس توليد الاساطير، فالشاعر الجاهلي استعان بالخيال «التصوري» او التصويري او الحسي و الخيال السمعي و قد غفّل عن الخيال الاختراعي و لم تنمو بذرة هذا الخيال عنده بشكل مطلوب و لم تأتي أكلها إلا مجاء نادراً في بعض القصائد. و منها قول النابغة في غمار خوفه، و صدق اعتذاره للنعمان بن المنذر:

فإنك كالليل الذي هو مدركي و إن خلت ان المنتاي عنك واسع
خطاطيف حجنّ في حبال متينة تمدّ بها ايديك نوازع

فقد رسم الشاعر ما يدور في خلجات نفسه و ملأه، الذعر و أقض مضجعه تهديد الملك اياه، فضاقت عليه الأرض بما رحبت، فرسم صورة صادقة عن شعوره كما رسم خياله في فضاء نفسه.

فالعقلية الجاهلية ركزت كل اهتمامتها حول الخيال التصويري او الحسي فكثرة التشبيهات المستعملة في شعرهم، ان دلّ على شي فانما يدلّ على ما ذكرناه. فالشاعر

أفاق الحضارة الإسلامية، العدد «الخامس و العشرون»، ربيع و صيف ١٣٨٩ هـ. ث

١. ابن عربي، محي الدين، الخيال في مذهب ابن عربي، ص ١ او عن الفتوحات الملكية ٥٠٨/٣

الجاهلي سلك طريق التصوير الدقيق الذي يحسُ حيناً بالبصر و حيناً بالسمع و حيناً بالوهم : فمن الامثلة قول امريّ القيس ساخرأ ممن يهدده بالقتل^١ .
ايقتلني و المشرقي مضاجعي و مسنونة زرق كانياب اغوال
او الصورة المأخوذة من المحسوسات البسيطة لتأليف منها صورة لاتخلو من الجدة
و التأثير كما ذهب امرؤ القيس^٢ :
كان قلوب الطير رطباً و يابسا لدى وكرها العناب و الحشف البالي
فعمل خيال الحس لامريّ القيس على ضم مجموعة من الاعضاء في مخلوق
واحد، ليمنحه مزايا هذه الاعضاء عند اصحابها في الأصل عند وصفه للفرس:
له ايطلا ظبي وساقا نعامة و إرخاء سرحان و تقريب تنقل^٣
وشبه طرفة بن العبد الناقة بالسحاب
كان الخليا فيه ضلت رباغها و عودا اذا ماهزة رعدّه احتقل^٤
وشبه النابغة الذبياني السحب بقطيع الابل:
اجش سماكيا كان رباية اراويل شتى من قلائص ابد^٥
و شبه ثعلبة بن صغير الخزاعي المازني الناقة بالنعامة التي تبسط جناحيها على
البيض في الظلام خشية عليه فيقول:
فبنت عليه مع الظلام خباها كالاحميسة في النصيف الحاسر^٦
و هكذا شبهوا الناقة في الضخامة بالقصر و القنطرة، و في الصلابة بالعلامة و
الصخرة، و السيد بالقرم، و الوجه الحسن بالشمس و القمر و اهداج النساء بالسفن، و
النجوم بالمصاييح و النساء ببيض النعام و السيف بالمتقف و الطلول بالوشم و الرماح
بأشطان و السيف المصقول بالماء كقول عمر و بن كلثوم:
كان متونهن متون غدر تصففها الرياح اذا جرينا

١. امرؤ القيس، ديوان، ص ١٤٧

٢. المصدر السابق، ص ١٢٢

٣. المصدر السابق، معلقته، ص ٢٤

٤. طرفة بن العبد، ديوان، ص ١١٧

٥. النابغة الذبياني، ديوان، ص ١٧٤

٦. ناصيف، مصطفى، قراءة ثانية لشعرنا القديم، ص ٩٦

و الديار بالكتاب في استوائه كقول عبيد بن الابرص
 لمن السدار اقفرت بالجنايب غير نوى و دمنة كالكتاب^٥
 و المطر النافع بالغيث والديار بالصحف
 كقول عنتره : كوحي صحائف من عهد كسرى
 فاهداها لاعجم طنظمي^٦

وشبهوا مرور الرياح على ديار الاحبة بذيل العروس و هو تشبيه غريب كما
 فعلَ عبدالله بن سلمة:^٧

و كاتما جر الروامس ذيلها في صحنها المعفو ذيل عروس
 وشبهوا السراب في قلبه عنداشتداد الحربثياب تطوى، فيقول المثقب العبدى:
 و امت صواديج النهار و اعرضت لوامع يطوي ريطها و برودها
 وشبهوا الثور بالكوكب المنقض او الشعلة المضيئة وشبهوا بعر الآرام بحب الفلفل،
 والشحم بهداب الدمقس المفتل و الحرب بالناقاة اللقاح فقال زهير من ابي سلمى:^٨
 فتعركم عرك الرحي بتفالها وتلقح كشافاً تم تنتج فتتئم
 ووصفوا اعمال اصحاب المروءة والشجاعة و الوفاء و الكرم و ضربوا الامثال
 فقالوا « اكرم من حاتم » و « اوفي من السموعل » فالعرب كانت تبالغ في وصف
 الابطال مثل وصفهم للعدائين وقالوا اعدى من الشنفرى و وصفهم لزرقاء اليمامة
 التي كانت تنظر الى مسيرة ثلاثة ايام.

لكثهم لم يتجاوزوا بهم حدود البشرية ولم يرتقوا بهم الى درجة الآلهة مثل ابطال
 اليونان في « الالياذة » و ابطال ايران في « الشاهنامه » و ابطال الهند في «
 مهابهارت » فالعرب لم يخلقوا أشخاصاً خرافية مثل قناطرة الجبال (كقنطورس
 المخلوق الثرابي)^٩ هذا ما يتعلق بالخيال التصوري او الخيال البصري عند العرب.

أقاة الحضارة الإسلامية، العدد «الخامس والعشرون»، ربيع و صيف ١٣٨٩ هـ. ث.

٥. عبيد بن الابرص، ديوان، ص ٢١

٦. عنتره بن شداد، ديوان، ص ٢٩٤

٣. المفضليات، ج ١/١٠٤

٤. الشنقيطي، احمد بن امين، شرح المعلمات العشر و اخبار شعرائها، ص ٦٠

٥. الالياذة، تعريب سليمان البستاني، ص ١٢٥

التصور السمعي:

فهذا التصور لا يقل شأنًا عن التصور البصري و الصور المختلفة التي رسموها فالهم الكثير من الشعراء مشاعر القوة و السيطرة و أثار لديهم الحنين و العطف و حرّك هواجسهم، فقد نُقِلَ عن كعب الأحبار أن سليمان (ع) مرَّ على بلبل فوق شجرة يحرك ذنبه و رأسه، فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول هذا البلبل؟ قالوا: لا يا رسول الله قال: يقول «أكلت نصف ثمرة فعلى الدنيا العفاء»^١

و مرَّ بهدهد فأخبر أنه يقول: «إذا أنزل القضاء عمى البصر» و صاح الورشان «لدوا للموت و ابنو للخراب» و الطاوس يقول: «كما تدين تدان» و القطاة تقول: «مَنْ سكت سلّم» و النسر يقول: «يا ابن آدم عش ما شئت فإنك ميت» و هذه الأقوال كلها كانت مضرب الامثال عند العرب و لعل العربي أخذ هذه النظريات بمساعدة تصوره السمعي الذي طبَّقه على تغريد الطيور حسب وزن لاصوات، نظراً لعودها و نزولها. أما المؤشر الذي يدل على ان العرب كانت تأخذ الأقوال و تطبقها على اصوات أطيور، فما قيل من أن العرب تصف الفاخنة بالكذب لأنَّ صوتها عندهم يُرَدَّد «هذا أوان الرطب» و تقول ذلك و النخل لم يطلع و لذلك يقال: «أكذب من فاخنة»^٢ و هذا النوع من الخيال يظهر جلياً في الاساطير العربيّة. و ما يتمخض مما اسلفنا يبرهن على أنّ العربي ضيق النطاق في مضمار التخيل الاختراعي و واسع الخيال في ميدان التخيل التصوري، فهو ممتاز و جيّد في التخيل التصوري و مُجيد له، و الاسطورة تتولد من رحم الخيال التصوري كما تتولد من التخيل الاختراعي و هو يتصور الاشياء و لا يخترع القصص حولها، و يقيم الأصنام و الأوثان و الانصاب في هيئة يرسمها و يلونها بألوان التصوير لا بألوان التخيل. فاذا أردنا أن نبحث عن اسطورة عربية فعلينا أن نراها في خيال تصوري اكثر مما نراها في خيال اختراعي. فلهذا كان خيال الجاهليين قادراً على توليد الاسطورة و الخرافة بشكل تصوري، فقد

١. الدميري، حياة الحيوان، ج١، ص ٨١

٢. المصدر السابق، ج١، ص ١٥٨

تصوروا الاشياء و استرجعوا التجارب و ركبوا صورهم الشعرية المادية المحسوسة، و فكرتهم عن الاشياء كانت تأخذ بُعداً مادياً فقد تصوروا الروح في شكل الهامة، و العمر الطويل في شكل النسور، و الشجاعة في شكل الاسد، و إمانة في الكلب و الخبث في الضبع و المكر والدهاء في الثعلب و البصر في الحمار و الخوف في النعامة و التشاؤم في الغراب و هذا ردُّ على مَنْ ارتاب و اعتقد ان الخيال العربي الجاهلي لم يستطيع ان ينسج الأساطير.

اشارات القرآن الدالة على معرفة العرب بالاساطير:

الاساطير العربية حكايات و قصص نقلها العرب بشتى الوسائل و هي تدور حول موضوعات مختلفة منها الجن - الآلهة و الاحداث الخارقة و عن الملاحم التي تسجل افعالهم و بطولاتهم و قد ورد مصطلح أساطير في القرآن الكريم، مرتبطاً بالتصورات الدينية و الاعتقادية و الطقوسية و المعرفية و الروحية و الفكرية و ذلك في تسعة مواضع في ثماني سور مكيّة و واحدة مدنيّة بصفة الجمع «أساطير الأولين» و من المعلوم أنّ القرآن اشار الى قصة عاد و ثمود و إرم ذات العماد و غيرها، و هذا يدلُّ على ان العرب الجاهليين كانوا على علم بأساطير تلك القبائل، فأساطير الجاهليّة و معارفها هي بقايا انباء غامضة تداولتها الاجيال، و استوعبتها عقول خضعت لوثنية كلها خرافة، بجانب النصرانية و اليهودية. فالنصوص الشعرية الواردة في شعر شعراء قبل الاسلام خير دليل على ما اسلفنا و من تلك الاقوال قول عدي بن زيد و هو يذكر عاداً و ارم بقوله:

ان الاسى قلبناجم و نعلمه فيهما اديل من الاجداد و الامم
منهم راينا عياناً او نخبره و ما تحدث عن عادٍ و عن ارم
و قال في ذلك ابن أشمط العبدي: أمام انّ الدهر أهلك صرفه ارمأ و عاداً

و احتط داوداً و أخرج من مساكنهم أياداً
و في القصيدة التي أنشدتها علقمة اشار الى حديث ناقة صالح و كيف رغا سقبتها

فوقهم عندما عقروها:

رغا فوقهم سقب السماء فداحص بشكته لم يستلب و سلايب
والله عزوجل اورد القصة و تفاصيلها كاملاً في محكم كتابه و الجدير بالذكر إنَّ
الشعراء الجاهليين قد عرفوا قصة النبي سليمان(ع) و تسخيره الحيوان و الطير و
الجن و الرياح لأغراضه و منشأته و قد اورد الشاعر الجاهلي النابغة الذبياني تلك
القصة بحذافيرها في معلقته اذيقول:^٢

الاسليمان اذ قال الاله له قم في البرية فاحددها عن الفند
و خيس الجن اني قد اذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح و العمد
و لم تقف معرفتهم عند هذا الحد و انما كانوا على علم كثير من أحداث العهدين
القديم و الجديد كحديث التكوين^٣، و اسطورة الطوفان و رحلات ابراهيم الخليل(ع) و
اعمال موسى و اخيه و شأنهما مع فرعون... و من ثم مجي المسيح و حديث العذراء
و اصحاب الكهف و كان للنصاري و اليهود الأثر البالغ في دخول الاساطير الى شبه
الجزيرة العربية.

الوثنية و المعتقدات الدينية عند العرب

نشأت و ترعرعت العرب في الصحراء تحيط بها الطبيعة القاسية من كل صوب و قد
تعرضت حياتهم لتجارب شديدة كان سببها الصعوبة في تحصيل مرافق المعيشة فكان
الانسان الجاهلي يبحث عن قضاء الضروريات التي لامناص لها، فكان يجرب الاشياء، و
يميز اللذة من الألم، و الخير من الشر، و كان تفكيره يتطور مع تطور تجاربه في الحياة و
قبل ان نتحدث عن الحياة الدينية لديهم و ماتناولوه في معتقداتهم، و لإثراء البحث يتحتم
علينا الايتان بوثيقة ناصعة البيان تكشف عن كل مادار في رحي حياة الانسان الجاهلي في
تلك العهود السحيقة على الصعيد الديني و الاجتماعي و الاقتصادي و السياسي، و هذا
الوثيقة الأوهي خطاب مبعوث النبي محمد(ص) الى الحبشة «جعفر بن ابي طالب(ع)» في

١. نفس المصدر، ص ١٢٩

٢. الشنقيطي، احمد امين، شرح المعلقات العشر و اخبار شعرائها، ص ١٦١

٣. النصرانية و آدابها بين عرب الجاهلية، ج ١، صص ٢٥٤-٢٨٢

حضرة النجاشي، و من جملة ما قال: أيها الملك كُنَّا قومًا اهل جاهلية، نعبد الاصنامَ و ناكل الميتة و نأتي الفواحش و نقطع الأرحام و نُسيء الجوار و يأكل القوي مِّنَّا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولاً مِّنَّا نعرف نسبه و صدقه و امانته و عفاه فدعانا الى «الله» لنوحده و نعبده و نخلع ما كنا نعبد نحن و آبؤنا من دونه من الحجارة و الأوثان و أمرنا بصدق الحديث و أداء الامانة و صلة الرحم و حُسن الجوار و الكف عن المحارم و الدماء و نهانا عن الفواحش و قول الزور و أكل مال اليتيم و قذف المُحصنات و أمر أن نعبد الله وحده لانشارك به شيئاً و أمرنا بالصلاة و الزكاة و الصيام، فصدقناه و آمنّا به.....»^١

« كان الشاعر الجاهلي يعيش في عصر تنبعث فيه الآلهة و الأرواح في كل شيء حوله، فأمن بقوى خفية كثيرة في بعض النباتات و الجمادات »^٢ و الحيوانات، و نسب اليها قدرة، تفوق قدرة الانسان، فحاول التقرب منهما و استرضاءها بمختلف الوسائل و الطرق. فربط بين هذه الكائنات و الموجودات و بين القوى الكامنة و قدسها ثم تطورت و ثنية العربي الى عبادة الصخور التي يستحسن مظهرها و هيئتها، و معظمها كانت بيضاء اللون لها علاقة بالغنم و الجمل و لبنهما. و مما لا جدال فيه ان الشعر الجاهلي قد ضاع منه التراث الديني الجاهلي كُله تقريباً لتقادم عهده و بُعد أمده، و لم يبق منه الا اشارات ضيئلة تومى الى الديانات القديمة إيماءً، و ترمز اليه رمزاً نحاول تسليط الضوء عليها.

تقديس الحيوان

فالعرب و إن قدسوا الحيوانات و عبدوها كما فعلَ اهل الطوطم و لكن اختلف الغرض فيما بينهم، فاهل الطوطم عبدوها لاجل إجلال آبائهم أما العرب قدسوها لمجرد تحصيل البركة او التقرب او اتقاء المكروه فقد آمن الكثير منهم بقدسية الحيوان و الشمس و القمر و الزهرة و اعتقدوا بروحانية الاشجار و النباتات، و توهموا بقدرات روحية خارقة لحيوانات مثل الافعي و التمساح و الثور و الطيبي و الماعز

أفاق الحضارة الإسلامية، العدد «الخامس و العشرون»، ربيع و صيف ١٣٨٩ هـ. ث

١. السيرة النبوية، ج ١، ص ٢٥٩

٢. الازرقعي، اخبار مكة، ص ٦٦

فاتخذوها آلهة تارةً و أنصاف تارةً أخرى، فالعرب كان يتسمون بأسماء حيوانات مثل: بنوضبّة، و بنوأسد و بنوكلب و بنوفهد و بأسماء الطيور نسر و أسماء النبات كحنظلة و غير ذلك. و في تلك التسمية و الانتساب الكثير من العناصر الاسطوريّة الكامنة في نفوسهم.

الصور الاسطوريّة للحيوان في الشعر الجاهلي

و العرب كغيرهم من الامم اهتموا كثيراً بالحيوان، وتعلقوا به و منحوه الكثير من العطف و الرعاية و بالغوا في تقدسيه و جعلَ منه رمزاً للتعبد و الاحترام فكان شعرهم حاملاً بكثير من العناصر و الرواسب الاسطورية المتعلقة بصور الحيوان و زخرَ ادبهم بوصف الحيوان على اختلاف اصنافه و الوانه و القصائد التي نُظمت في هذا المضمار تُعد من اجمل الشعر و اظهره . و من تلك الحيوانات التي عُني بها و اهتم بوصفها و خصائصها و اضى عليها عنصر التقديس هي « الناقة».

الناقة

إنّ صور الناقة الواردة في ثنايا اشعارهم ترمز الى ديمومة الحركة و العمل و استمرارية الحياة في وسط بيئة قاحلة و جافة لاترحم احداً فالناقة في رأي الجاهلي هي المُنقذ له، القادرة على تحمل الصعاب و تذليل العقبات و لها الفضل الاعظم في انتشال الشاعر من همومه و احزانه و حمايته من مخاطر الصحراء كما أكد طرفة بن العبد هذا المعنى بقوله:

و إني لأمضي الهمّ عند احتضاره
بعوجاء مرقال تروح و تغتدي
و قول عبيد بن الابرص: ^١ و قد أسلي همومي حين تحضرنني

بجسرة كعلاة القين شمال

و اتخذوا من الناقة وسيلة لبلوغ مقاصدهم و مآربهم فيقول المرقش الاكبر: ^٢

١. الشنقيطي، شرح المعلقات، ص ٤٣

٢. عبيد بن الابرص، ديوان، ص ٦٨

٣. المفضليات، ص ٢٣٣

فهل تُبْلَغُنِي دارَ قومي جِسْرَةَ خنوف عَنَدِي جَلَعَدَ غَيْرَ شَارِفِ
والناقة تُعَدُّ القوةَ الاقتصاديةَ العملاقةَ في مواجهةَ الجذبِ والجوعِ وهي جزء
لا يتجزأ من حياة الجاهلي، اذ نسج الجاهلي ارتباطاً وثيقاً مع هذا الحيوان لفوائده
الجمة بل أنه استعار بعض الصفات فالاعشى يصور ممدوحه بأنه متحلب الكفين و
كأنه في عطائه تسح كفاه اللبن سخاً قانلاً:

مَتَحَلَّبُ الكَفَيْنِ مِثْلُ البَدْرِ قَوَالٍ و فاعِلٍ

و هذه الصورة الذي دأب عليها الشاعر الجاهلي هي بلاشك امتداد لجذور اسطورة
حيث كان الاله المعبود قديماً تسح كفاه بالماء و البن و الخمر.
وقد ورد في الشعر الجاهلي تشبيه الناقة و السفينة و هذا ما أكدته دكتور نصرت
بقوله: «إنَّ الجاهليين كانوا يتصورون السماء ناقةً»^١

فالناقة لها تاريخ سحيق عند العرب، فناقة صالح كما ذكرها الطبري وُلِدَتْ من
بطن صخرة ارتجفت و ظهر في جانبها نتوء كبير، ظلَّ يدور، ثم تمخضت الصخرة
كما تتمخض المرأة، فوضعت الناقة، و يصفها الرواة بالعظمة، فالناقة كانت عنصراً
مقدساً، يدفعهم الى هذا التقديس، شعور بالتشاؤم منها في ملاحم الغنا التي تقترن بها،
بعد الصيحة التي أخذتهم إثر ناقة صالح و ناقة البسوس. فاهتم العرب بالناقة والفرس
دون الحيوانات الاخرى اهتماماً كثيراً فلاغرو اذا سمي العرب المال او النعم و لا
عجب أن تاخذ الناقة مساحة كبيرة من الرعاية و العناية لدي العرب. لائها تمثل القوة
و الصلابة، و التسلية، و قري الضيف، و بلسماً للجروح كما قال زهير بن أبي
سُلْمَى:^٢

تَعْفِي الكَلِومَ بالمئين فاصبحت يَنْجَمُها مِنْ ليس فيها بمجرم
يَنْجَمُها قَوْمٌ لِقَوْمٍ غرامية و لم يهرقوا بينهم ملء محجم

و قد سموا بالناقة و الجمل كثيراً من النجوم «كالفتيق» و هو الجمل العظيم، و قالوا
عن «سهيل» اذا وقعت عينُ الجمل عليه، مات من ساعتِهِ.

أفاق الحضارة الإسلامية، العدد «الخامس و العشرون»، ربيع و صيف ١٣٨٩ هـ. ٣.

٤. الاعشى، ديوان، ص ٣٩٧

٢. عبدالرحمن، نصرت: الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، ص ١٥٧

٣. الألويسي، خزانة الادب، ج ١، ص ١٦٥

٤. الشنقيطي، ص ٥٩

فلم تكن الناقة مجرد حيوان في العصر الجاهلي، فقد احتلت مكانة عظيمة عند العرب بلَغَتْ حدَّ التقديس فالنظر الى الناقة في الجاهلية كان نوعاً من العبادة، ولما بَزَع فجر الاسلام، قال ربّ العزّة: «أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلِقَتْ»^١ فالعرب عرف في الإبل معني الخصوبة والورود والسقيا. قال الله عزوجل: «ناقة الله و سقياها»^٢ و شبهوها «بالمراة» وقالوا في القلوص إنها الشابة من الإبل، فنعموها كما تنعم الفتاة الكعاب.^٣

فالاهتمام و العناية الفائقة التي لقتها الناقة من قبل الجاهليين، البعض ربطها بعبادات و طقوس دينية قديمة كما أكد على البطل فيما ذهبنا بقوله: «وسواء أكان هذا الكفل لحصان او ناقة او امرأة فالأمر لا يختلف لأنّ هذه كلها معبودات تتحد في معناها و إن اختلفت في صورها»^٤

ومن المزامع الاسطورية التي تفتشت حول الناقة عندهم، هي إنّ العرب كانت تكوي الجمل السليم و تترك الجمال التي وقّع فيها «العُر» فاذا أصيب جملها بالعر و العرُّ هوداء يشبه الجرب عمدت الى جمل سليم فكوته و تركت الابل المريضة دون كي!! زاعمة شفائها و في ذلك يقول النابغة الذبياني في احدى اعتذارياته:

حلفت فلم اترك لنفسك ربيّة و هل ياتمن ذوامة و هو طائع
لكلفتني ذنب امريء و تركته كذي العرّ يكوى غيره و هو رافع

فالشاعر الجاهلي حرّص على وصف الناقة باوصاف دالة على تعلقه بها من حيث انها تمثل له رمزاً للحياة و استمرارها و الملفت للغرابية انّ العرب التفتوا الى ظاهرة تميز الإبل عن غيرها من الحيوان فقدرأوا أنّ الإبل تولع بأكل عظامهم اذا ماتوا و لا يوجد حيوان يأكل عظام الموتى من البشر فكانوا يتأرون لأنفسهم منها في حياتهم، فأفراطوا في نحرها و عقرها، و ربطوا ذلك بالمياسرة بها، كأنّ نحرهم لها في حياتهم كان إنقاذاً لا أنفسهم منها بعد مماتهم، لذلك جعلوا من الناقة ما يشبه السفينة في الملاحم

٤. سورة الغاشية/١٧

٥. سورة الشمس/١٣

٦. عبدالله، الطيب، المرشد الى فهم اشعار العرب، ج٣، ص ١٠١

٤. البطل، على: الصورة الفنية في شعر العربي، ص ١٥١

الكونية القديمة، تحملهم الى العالم الثاني، و هو ظاهر مفهوم «البلية» التي كانوا يربطونها عند قبر الميت ساعة دفنه «و البلية لا تكون الا ناقة تعقل الى جانب القبر حتى يدركها الموت، فاذا نهض الميت من قبره وجدها قريبة منه و امتطها عابراً عليها الى العالم الآخر»^١ فهذا عمر بن زيد يوصي ابنه بأن يترك على قبره ناقته ليركبها في الحشر، فيقول:

ابنّي زودني اذا فارقنتي في القبر راحلة برحل فاتر
للبعث اركبها اذا قيل اظعنوا مستوتقين معاً لحشر الحاشير

و خلاصة القول إنّ الناقة كانت حيواناً مميزاً و لعبت دوراً اساسياً في حياة العرب لفوائدها الجمة و امتدّ الامدّ الاسطوري لها فكانت موضوعاً نمطياً تتكرر في قصائد الشعراء، فظلت الناقة احدى الرواسب الاسطورية التي تتعلق بعباداتهم و طقوسهم.

الفرس:

فالعربي منذ زمن قديم احب الخيل واهتم بتربيتها و عنايتها و تفاخر و تنافس في اكرامها و استخدمها في كثير من المجالات و ابرزها الحرب و النقل و ما شاكله. فالجاهلي كان يتغنّى باقتناء الفرس و يتباهي؛ و من تقاليدهم لا احديبيع فرسه و لوضاقت به السبل، لانّ في بيعها مثلبة لاتداينها مثلبة و هذا يوحى بالثقة الأكيدة التي تغمر قلب الانسان العربي و اعتقاده الراسخ بحبّه لهذا الحيوان الأصيل و اشار بعض الباحثين الى إنّ الفرس كان من الحيوانات المقدسة عند الجاهليين القدماء فالدكتور على البطل «يرى إنّ الحصان كان يلعب دور حيوان الشمس المقدس، لذلك فهو ينوب عن إله الشمس»^٢ و تصوير الفرس بالثور الوحشي وبالنخلة الكثيرة الحمل له دلالاته الاسطورية، فالثور و النخلة كانا مقدّسين عند الجاهليين، و الفرس كذلك كما نص عليه قول الدكتور على البطل: «صحيح أنّ الابل و الخيل قد عبدت في الديانات العربية القديمة، ولكن المعاشة القريبة تغلبت على الظلال الميتافيزيقية المترسبة

أفاق الحضارة الإسلامية، العدد «الخامس و العشرون»، ربيع و صيف ١٣٨٩ هـ. ٣.

١. بلوغ الأرب، ج ٢، ص ٣٠٧.

٢. البطل، علي: الصورة الفنية في شعر العربي، ص ١٥١.

حول هذين الحيوانين الأليفين»^١ و فيما يبدو أنّ صورة الفرس قد ارتبطت بالتفكير الديني الجاهلي فجانب صورة الفرس الأرضية توجد صورة الفرس السماوية، الجدير بالذكر أن صورة الفرس في السماء كانت في مخيلة الجاهلي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً «بالمطر و السماء» و من صور الكواكب التي نسجها العرب على هيئة الفرس اسموها «الدلو» و «سعد الماطر» و هذه اللمسة عند الجاهلي في حديثه المطول عن الفرس جعلته ان يتخذ من الفرس رمزاً للغيث و الخير و الحياة، فالبعض منهم بالغ في وصف الفرس و اعطاها صورة اسطورية كما فعل امرؤ القيس:

مَكْرَمٍ مَقْرَمٍ مَدِيرٍ مَعَا كَجَلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَّةِ السَّيْلِ مِنْ عَل
و لم يتوقف هذا الشاعر في وصفه لها بل جعل من معلقته الشهيرة درامة تتناول انشودة كونية للمطر فالفرس فيها «قطب الرحي تتدافع في سياقه الانثى والوليد و الصخرة و الطيبي و النعامة و الذئب و الصباح و الليل و موج البحر، لانها معالم الحياة التي تريد أن تدمر الموت، و البقاء الذي يغالب الفناء»^٢ و معظم شعراء الجاهلية ربطو فكرة الماء بوصف الفرس و تكررت هذه الصورة كثيراً في اشعارهم و كلُّ الشعراء «جعلوا الخيل سباحة تصبُّ الجري صباً، و تسبح فيه سباحة»^٣ و هذا الربط و النسج الوثيق فيما بين الماء و السيل و الفرس يدلُّ على خيوط و دلالات اسطورية أنيطت بهذا الحيوان لتضفي عليه هالة من القداسة و الجلالة.

الثور الوحشي

ردد الكثير من الشعراء الجاهلية وصف الثور في اشعارهم فصورة الثور الوحشي التي انعكست في قوافي الشعر الجاهلي مرّدها التراث الديني الجاهلي الذي انطمست

١. نفس المصدر، ص ١٥٠

٢. عبد البديع، لطي: عبقريّة العربيّة، ص ٢١٢

٣. ناصف، مصطفى: قراءة ثانية لشعرنا القديم، ص ٧٥

معالمه و اندثرت طقوسه و لم يبق منها سوى اشارات و احياءات ضئيلة توحى بالمعتقدات القديمة. لأنَّ الثور الوحشي في المعتقدات القديمة كان يُمثَّل «اله» يرمز الى القوة و الخصب، و هو اله العواصف، عبده «السومريون» و سموه «انليل» و عبدوا البقرة إلهة معه، و مِن اتحادهما في زواج مقدس فاضت دجلة و الفرات بالخصب على ارض سومر و كان «الآشوريون» يضعون الثيران المجنحة على ابواب قصورهم حارساً راعيّة، لأنَّهم كانوا يعبدون الاله «الثور و يلتمسون عنده الحماية و الرعاية^١ و اتخذ العرب «الثور» رمزاً لألهتهم «القمر» فعدَّ من الحيوانات المقدسة التي ترمز الى الآلهة.^٢ و سمى العربُ معبودهم الذي يتقربون به الى الله «بعلاً» لاعتقادهم ذلك فيه و اشار القرآن الكريم الى ذلك «إنَّ الياسَ لمن المرسلين، اذقالَ لقومه الا اتفقون اذ دعون بعلاً و تذرون أحسنَ الخالقين»^٣ و سمى العرب ابن البقرة الوحشية «بالفرقد» و الفرقدان نجمان معروفان، لكونهما من صنف الحيوان المقدس و كان العربي اذامات حيوان من نوع الطوطم احتفلَ بدفنه و حزن عليه، فكان بنو الحارث اذا وجدوا غزلاً ميتاً غطوه و كفنوه و دفنوه و تحزن عليه القبيلة الى ستة ايام. و البعض منهم اتخذ الثور تعويذة سحرية في طقوس الاستسقاء، و من جملة هذه الطقوس أنَّهم كانوا يحشون جلد الثور بالبذور الزراعية و يمزقون الجلد ليتدفق منه الحب فيمطرون^٤ فالغالبية العظمى منهم ربط بين صورة المطر و الماء و صورة الثور و متلوه رمزاً للقوة و الصلابة، القدرة على التحكم بالبرق و الرعد و المطر و السحب. راح الثور يرمز في تصور الجاهلي الى «الملك و صانع المطر» قال سحيم، عبد بني الحساس:^٥

يَنحى تراباً عن مبيت و مكنس ركاساً كبيت الصيّد نائي دانيا

أقاة الحضارة الإسلامية، العدد «الخامس و العشرون»، ربيع و صيف ١٣٨٩ هـ. ث.

١. جيمس فريزر، أدونيس: ترجمة ابراهيم جيرا، ص ١٠٥

٤. دتيلف نيلسن، تاريخ العربي القديم، ص ٢٠٧

٥. سورة الصافات/١٢٣-١٢٥

٤. النوري، قيس: الأساطير و علم الاجناس، ص ١٩٢

٥. سحيم، ديوان، ص ٢٩

و قَرَنَ بعضهم صورة الثور بصورة الكواكب المعبودة. قال عبيد بن الابرص:
 كالكوكب الدَّرِي يَشْرِقُ مَتْنَهُ خَرَصًا خَمِيصًا صَالِبَةً يَتَاوَدُ
 و مِن مَزَاعِهِم حَوْل الثور التي تتصل بالاسطورة هو أن الجن هي التي تُصَدُّ
 الثيران عن الماء حتي تمسك البقر عن الشرب فتهلك، قال الاعشى^١.
 لكالثور و الجئي يَضْرِبُ ظَهْرَهُ و ماذَنْبُهُ ان عَافَتْ المَاءَ مَشْرِبًا
 و ما ذَنْبُهُ ان عَافَتْ المَاءَ بِأَقْرَبٍ و ما ان تَعَاَفَ المَاءَ الا لِيَضْرِبًا
 و المثير للاعجاب و الدهشة و الانتباه في كافة الصور الشعرية و اللوحات الفنية
 التي رسمها الشاعر الجاهلي حول صراع الثور و الكلاب، تبتعد الصورة كل البعد
 عن التضحية بالثور في هذا الصراع المرير بل كلاب الصيد هي التي تُقْتَلُ و تكون
 فريسة او تجرُّ اذيال الخيبة في صراعها و هذا إن دَلَّ على شيء فائما يدلُّ على
 ارتباط قصة الثور بالحياة فالثور يمثلُ اله الخصب و القوة و المطر فلا ينبغي للآله ان
 يُقْتَلُ و هذه النظرة ترتبط بجذور اسطورة قديمة سَطُرَتْها الاقوام و الملل حول هذا
 الحيوان.

اسطورة الوثنية و الصنمية:

نسج الجاهلي حول الجبال و الصخور و الاشجار و مما كان يحيط به، قصصاً و
 خُرَافَات و اساطير، و رَسَمَ صوراً خيالية في الاحجار التي كان يبحثُ عنها في
 الوديان و سفوح الجبال، فقد صَوَّرَ خياله الصفا و المروة، و هما صخرتان، رجلاً و
 امرأة مسخهما الله حجرين، و صَوَّرَ خياله ايضاً أسافاً و نائلة رجلاً و امرأة
 ممسوخين حجرين على موضع زمزم.^٢ و من يقرأ الشعر الجاهلي يجدُ في ثناياه ابياتاً
 تشير الى هذه الشعائر و المعتقدات الدينية التي كانت شائعة قبل الاسلام، و من تلك
 الامثلة قول اوس بن حجر:

و باللات و العزى و من دان دينها

و بالله إن الله منهنَّ أكبر

١. الاعشى، ديوان، ص ١٥١

٢. ابن هشام، ج ١، ص ٨٤

وقول امرؤ القيس: فَعَنَّ لَنَا سِرْبٌ كَأَنَّ نِعَاجَهُ

عذارى دَوَارٍ فِي الْمَلَأِ الْمُدَّيْلِ

و عندما قُتِلَ ابوه ملك بني اسد، وأراد طلب ثأره و انتقامه، أتى الى صنم «ذا الخُصّة» و استقسم بالأزلام عنده، فَخَرَجَ السهم بينها عن ذل فقال: ^١ لو كنت يا ذا الخُصص الموتورا مِثْلِي، وكان شيخك المقبوراً لم تَنَّهُ عن قَتْلِ العِدَاةِ زورا

و لم يكن اتخاذ العرب الاصنام و تقدسيها يدلُّ على انها تمثل لهُ آلهة و ارباباً بل اتخذوه ها وسيلة للتقرب الى الله. و كانت العرب اذا حجت البيت [الكعبة] فرأت تل الاصنام، سألت قريشاً و خُزاعة فيقولون نعبدها لتقربنا الى الله زلفى فلما رأت العرب ذلك اتخذت اصناماً فجعلت كل قبيلة لها صنماً يصلون اليه تقرباً الى الله ^٢ قال الله عزوجل «ما نعبدهم إلا ليقُرُّ بونا الى الله زلفى» ^٣ و قوله ايضاً «و يعبدون من دون الله مالا يضرُّهم و لا ينفعهم و يقولون هولاء شفعاؤنا عند الله» ^٤ و كانت عبادة العرب للأوثان و الاصنام «ضرباً من التدين بدين الصابئة في تعظيم الكواكب و الاصنام الممثلة بها في الهياكل، لاعلى ما يعتقد الجاهل بديانات الامم و آراء الفرق، من أن عبدة الاوثان يعتقدون أن الاوثان هي الالهة الخالقة للعالم» ^٥ و تشير الروايات أن أول من غيّر دين اسماعيل «عمر بن لحي الخُزاعي» فنصب الأوثان، و سيّب السائبة و وصل الوصيلة و بحرَ البحيرة و حمى الحامية ^٦.

و ذكروا ايضاً أنه مرَضَ مرضاً شديداً، فَرَحَلَ الى البلقاء بالشام ليستشفى في إحدى حماتما فأتاها و استحم بهذه الحمة فبرأ، و وَجَدَ أهل البلقاء يعبدون الاصنام، فقال: «ما هذه؟ فقالوا: نستسقي بها المطر و نستنصر بها على العدو فسألهم أن يعطوه منها،

أفاق الحضارة الإسلامية، العدد «الخامس و العشرون»، ربيع و صيف ١٣٨٩ هـ. ش

١. الشنقيطي، ص ٣١

٢. اليعقوبي، تاريخ ابن واضح اليعقوبي، ج ١، ص ٢٩٥

٣. سورة الزمر/ ٣

٤. سورة يونس/ ١٦٩

٥. الاندلسي، ابوالقاسم، طبقات الامم، ص ٤٢

٦. ابن الكلبي، ص ٨

ففعّلوا فقدم بها مكة و نصبها حول الكعبة»^١ و من اصنام العرب القديمة «مناة» و مناة مشتقة من المنا و المنية و هو الموت او القدر^٢ و من المنية المنون، و منها منى، و هو موضع بمكة كان يُمنى فيه «اي يراق الدم فيه، و كانت مناة من آلهة الموت و القدر عند البابليين و تعرف باسم مامناتو و كانت الأوس و الخزرج يحجون اليه و لا يحلقون رؤوسهم الا عنده و في ذلك يقول عبد الغزي بن و ديعة المزني^٣:

إني حلفتَ يمين صدق برةً بمناة عند محلّ الخزرج
فالعربي الجاهلي لم ينظر الى الاصنام على أنّها خلقتُ أو خلقت الكون، لكن البعض منهم، كان شديد الاعتقاد و الايمان بتأثيرها في شؤونه الفردية و الاجتماعية و راح يعتقد أنّها تمتلك القدرة على نفعه و ضرره و كان لمرداس ابي العباس بن مرداس و ثن يعبدُهُ، و هو حجر يقال له «ضيمار» فلما حضرهُ الموت قال لابنه العباس: اعتبد ضمراً، فأنه ينفكك و يضرّك^٤. و البعض منهم كان يعتقد إنّ الجفاء و شق عصا الطاعة للاصنام يصيبه بالعمى و البرص و الجذام و الجنون، فهذه «زئيرة» و هي أمة ضعيفة، تعتنق الاسلام و يصاب بصرها بعد العتق، فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات و العزى^٥. اعتقاداً منهم أن كل من يعصي او امرهما لا بُدَّ أن يلقي العذاب الأليم منهما.

«يغوث» علل البعض بأن صنم «يغوث» وُجد بين آلهة المصريين على صورة الأسد يسمونه «تغنوت» فعبدته العرب و نسبوه الى اسمائهم فتسموا بعبد الأسد و عبد يغوث و في تصور اتباعه، الهام مقاتلاً، يقودهم الى ساحات المعارك و يمكنهم من النصر على خصمهم، و في ذلك يقول الشاعر^٦:

وسار بنا يغوث الى مراد فناجز ناهم قبل الصباح

٤. نفس المصدر، ص ٨

٥. ياقوت، معجم البلدان، ص ٢٠٤

٦. ابن الكلبي، ص ١٤

٤. الحموي، معجم البلدان، ص ٢٠٤

٥. ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١، ص ٣٤

٦. ابن الكلبي، الاصنام، ص ١٠

«هبل»

و من الاصنام التي كانت على صورة الانسان و تعدُّ اعظم أصنام قريش هي «هبل» و كان يستفتى في مشكلات الناس الشخصية كالزواج و الولادة، و الرحلة و العمل، فكانوا يستقسمون عنده بالقداح، فما خَرَجَ عملوا به، و انتهوا اليه، و اذا شكوا في نسب أحدهم ذهبوا به الي «هبل» و حملوا معهم مائة درهم و جزوراً، فأعطوها صاحب القداح الذي يضرب بها، ثم قرَّبوا صاحبهم الذي يريدون به ما يريدون، ثم قالوا: يا إلهنا، هذا فلان أردنا به كذا و كذا. فاخرج الحقَّ فيه. وفي ذلك يقول شاعرهم:

إنا اختلقنا فهب السراحا ثلاثة، ياهبل، فصاحا
الميت و العذرة و النكاحا و البرء في المرضي و الصحاحا

إن لم تقله فمر القداحا

عبادة الكواكب

و الى جانب عبادة الاصنام عكف العربي على عبادة الكواكب و سَطَّرَ اساطير جمّة حول قُدسيّة هذه الكواكب و لا سيّما «الشمس و القمر و الزهرة» التي ذكرها القرآن الكريم و نهى عن عبادتها فقال رَبُّ العِزَّة: «و مِن آيَاتِهِ اللَّيْلُ و النَّهَارُ و لِلشَّمْسِ و الْقَمَرِ لا تَسْجُدُوا الشَّمْسَ و لا لِلْقَمَرِ و اسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ»^١ و من الشواهد الدالة على عبادة العرب للشمس قصة سليمان(ع) مع الهدهد اذ قال ربّ العزة «وجئتك من سبأ بنبأ يقين إني وجدت امرأة تملكهم و أوتيت من كل شيء و لها عرش عظيم وجدتها و قومها يسجدون للشمس من دون الله، و زَيْنَ لهم الشيطان اعمالهم فصَدَّهُم عن السبيل فهم لا يهتدون الأيسجدون لله»^٢ و من المعتقدات الاسطورية لديهم أنّ الشمس هي التي تبدل بالسنّ القديمة سنّاً جديدة، إذ كان الغلام او الجارية من غلمان العرب إذا سقطت سنه يقذف بحذاء الشمس، فيرمي بسينه، ثم يقول

أفاق الحضارة الإسلامية، العدد «الخامس و العشرون»، ربيع و صيف ١٣٨٩ هـ. ث

١. سورة فصلت/ ٣٧

٢. سورة النمل/ ٢٢-٢٥

للشمس: أبدليني بها سناً أحسن منها» و قد أشار طرفة بن العبد في قوله و هو يصف جمال اسنان حبيبته:^١

بادن، تجلو اذا ما ابتسمت عن شتيت كاقاح الرمل غر
بدلته الشمس من منبته برداً ابيض مصقول الاثر

القمر

و من البراهين الدامغة الدالة على وجود عبادة القمر بين الجاهليين هو قوله تعالى: «لاتسجدوا للشمس و لا للقمر و اسجدوا لله الذي خلقهن»^٢ و تذهب الاسطورة الى أن للقمر تأثيراً في الكائنات و في تصرفات الانسان و قد أتخذه الحميريون الهاً و اتخذوا له صنماً على شكل عجل و بيده جوهرة، إما عرب الجزيرة فيعتقدون ان بنات الله الثلاث مناة و اللات و العزى انما هي آلهات القمر، فمناة: القمر المظلم، و اللات: القمر المنير، و العزى: الاثنان معاً، و منهم من انتسب الى القمر كبنوقمر و من بطونهم قمير. و هكذا القمر احتل مكانة مرموقة في ديانة العرب و رُمز للقمر بالثور، و لعل سبب ذلك يرجع إلى أن للثور قرنين يشبهان الهلال.^٣

الزهرة

هي آلهة الجمال و الحب، عشتار العرب، و سماها الايرانيون «ميترا» و اليونانيين «فينوس» و العرب المتاخمة للشام و العراق عبدها و أسموها العزى، و كانت عبادتها قائمة باستباحة المنكرات و ارتكاب القبائح الناشئة عن روح العشق في الطبيعة و البشر مثلتها بابل بعشتار امرأة حسناء عارية فالزهرة حملت معاني البياض و الحسن و الجمال و الطرب و السرور و الهو «فالتحديق بها يُثير الفرح و النظر اليها يُثير غريزة الجنس اذا كان عاشقاً»^٤ و تذهب اسطورة [الزهرة] الى انها فتنت الملائكة لما وقع الناس من بعد آدم (ع) في الظلال، شرعت الملائكة تطعن في اعمالهم فأراد الله ابتلاء الملائكة فاهبط «هاروت و

١. طرفة بن العبد، ديوان، صص ٥٦-٥٧.

٤. سورة فصلت/ ٣٧

٣. جواد، علي، تاريخ العرب، ج ٥، ص ١٢٣

٤. القزويني، عجائب المخلوقات، ص ٢٢

ماروت» الى الأرض بعد أن ركبَ بهما شهوات الانس و في الأرض عرضت لهما امرأة حسناء (الزهرة)^١ فابتليا بالمعصية و تطلب منهما تعليمها الكلام الذي تصعد به الى السماء فعلمها و عرجت به الى السماء و هناك نسيت الكلام الذي ينزلها فبقيت مكانها و جعلها الله، ذلك الكواكب الجميل، الذي يطلع في آخر الليل و يسمى نجمة الصبح.

الحنفية و الاحناف

و الى جانب عبادة الاصنام و الكواكب و ماشاكلها ظهرت جماعات من ثبهاء العرب الذين نفرت و سمت نفوسهم عن عبادة الاوثان و اعتنقوا الشريعة الابراهيمية المعروفة بالحنفية و الحنيف في اللغة المائل من خير الى شر، او من شر الى خير و حنف على الشيء و تحنف: مَالَ. وقال ابو عبيدة و من كان على دين ابراهيم فهو حنيف عند العرب. قال الله عزوجل: «و قالوا كونوا هُوداً او نصارى تهتدوا، قُل بل ملة ابراهيم حنيفاً و ما كان من المشركين»^٢ فالاحناف اعتزلوا عن الناس في الكهوف و المغارات من اجل التأمل و العبادة و الصلاة و اعتقدوا بوحداية الله عزوجل، و ابتعدوا اكل البُعد عن النصرانية و اليهودية. و انفوا من عبادة الاصنام و دعوا الى اعلاء كلمة الله و في ذلك يقول زيد بن عمر و بن نفيل عندما تحنف و ترك عبادة الاصنام:

اربياً و احداً ام الف ربّ	ادين اذا تقسمت الامور
عزلت الالات و العزى جميعاً	كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا عزى ادين و لا ابنتيها	و لا صنمي بني عمرو ازور
و لا هبلا ازور و كان ربّاً	لنا في الدهر إد حلمي يسير
ولكن اعبد الرحمن ربّي	ليغفر ذنبي الربّ الغفور

و قد آمن المتحنفون بالله و بيوم الحساب، و في ايمانهم بالله يقول عبدالطباخة ابن

ثلعب بن قضاة:

ادعوك يا ربّ بما انت اهلّه	دعاء غريق قد تشبث بالعصم
لانتك اهل الحمد و الخير كله	و ذو الطول لم تعجل بسخط و لم تلم

١. تفسير الطبري، ج١، صص ٣٤٣-٣٤٦

٤. سورة البقرة/١٣٥

٣. الألويسي، بلوغ الأرب، ج٢، ص ٢٥١

و يقول علاف بن شهاب التميمي:

و لقد شهدت الخصم يوم رفاعه
و عملت ان الله جاز عبده
فاخذت منه خطة المغتال
يوم الحساب باحسن الاعمال

وكانت هذه الافكار و المعتقدات الوحدانية شكّلت نواة فتاكة لتقويض الوثنية السائدة في الجزيرة العربيّة، ممهّدة الطريق ليزوغ فجر الاسلام على يد مفرّجها سيد البشرية و خاتم الرسل محمد بن عبدالله صلي الله عليه و آله و سلم.

النتيجة :

الشعر الجاهلي في عصره كان زاخراً ببقايا الاساطير التي كانت منتشرة في الوسط القبلي فمعنى ذلك إنّ الشاعر الجاهلي و عي هذا الارث الثقافي القديم و عبّر عنه بافكار و اخيلة مختلفة، فالشعر الجاهلي يُعدّ وثيقة صالحة، ناصعة البيان لتعريف المجتمع الجاهلي، و استطاع هذا الفن و لوبحجمه اليسير الذي وصل الينا أن ينقل الكثير من العناصر الاسطورية النابعة عن تراثهم السحيق. فالاسطورة العربيّة جاءت مزيجاً من عناصر شتى من اساطير كونية و طقوس دينية و رموز حضارية و اساطير لكائنات خفية و خارقة لقوى الشر و قوى الخير، فالرموز و الايحاءات المتمثلة في القصيدة الجاهلية تمثل جانباً فنياً و وجدانياً لترانين طقوسية و ملامح معرفية تجاه الكون و الحياة. فالحجة الداغمة التي جعلنا بأن نُؤمن إنّ العربي الجاهلي شهد حياة اسطورية و عايشها و قضى الايام و السنين مع تغلباتها و بنى الكثير من افكاره في ظلها و استوعب المزيد من معارفها و انبائها الغامضة هو قوله تعالى: «وقالوا أساطيرُ الأولين اكتتبها فهي تُملي عليه بكرةً و أصيلاً»^٢ و ظهرت تجليات تلك الاساطير على شكل ممارسات او عادات سحرية و طقوس و ثنية او عناصر بطولية ترمز الى تقاليد مورثة تضرب بجذورها الى مئات السنين، و كلما تقترب من يزوغ فجر الاسلام تتبدد صورة الاساطير و صورة الطقوس و الموروثات الثقافية القديمة و تتجلى صورة الوحدانية و العقلانية اكثر فاكثر.

١. نفس المصدر، ص ٢٥٠.

٢. سورة الفرقان/٥.

المصادر :*** القرآن الكريم.**

- ابن الكلبي، *الاصنام*، تحقيق احمد زكي، القاهرة، ١٩٦٤م.
- ابن هشام، *السيرة النبوية*، القاهرة، ١٩٤٦م.
- الاعشى، *ديوان*، تحقيق محمد، حسين، بيروت، ١٩٩٥م.
- الألوسي، *بلوغ الأرب*، شرح بهجة الأثري، القاهرة، بدون تاريخ.
- امرؤ القيس، *ديوان*، دار صادر بيروت، ١٩٨٧م.
- البطل، علي، *الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري*، دار الأندلس، ط٢، ١٩٩٦م.
- جواد، علي، *تاريخ العرب قبل الاسلام*، بغداد، لا.ت.
- حسني، عبد الجليل يوسف، *الادب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص*، القاهرة مؤسسة المختار ط. ١، ٢٠٠١م.
- الحوفي، احمد، *الحياة العربية في الشعر الجاهلي*، دار نهضة مصر، ١٩٧٤م.
- زهير بن ابي سلمي، *ديوان*، بيروت، ١٩٩٨م.
- سالم، عبدالعزيز، *تاريخ العرب في عصر الجاهلية*، بيروت دار النهضة العربية، لا.ت.
- الشفقيني، *شرح المعلمات العشر و اخبار شعرائها*، لبنان، بيروت، ١٩٩٣م.
- صلاح، عبدالحافظ، *الزمان و المكان و أثرهما في حياة الشاعر الجاهلي و شعره*، دار المعارف، ١٩٨٢م.
- الصمد، واضح، *أدب صدر الاسلام*، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢م.
- ضيف، شوقي، *العصر الجاهلي*، القاهرة، ١٩٦٠م.
- طرفة بن العبد، *ديوان*، القاهرة، ١٩٩٢م.
- عبدالرحمن، نصرت، *الصورة الفنية في الشعر الجاهلي*، لبنان، بيروت، بدون تاريخ.
- عبيد بن الأبرص، *ديوان*، بيروت، دار الشرق، لا.ت.
- القزويني، *آثار البلاد و أخبار العباد*، بيروت، ١٩٨٥م.
- القزويني، *عجائب المخلوقات*، بيروت، دار الحياة، ١٩٧٥م.
- قيس، النوري، *الأساطير و علم الأجناس*، بغداد، ١٩٩٣م.
- لطفي، عبدالبديع، *عبقريّة العربيّة في رؤية الانسان و الحيوان و السماء و الكواكب*، القاهرة، مكتبة النهضة، ١٩٧٨م.
- المسعودي، *مروج الذهب*، القاهرة، بدون تاريخ.
- مصطفى، ناصف، *قراءة ثانية لشعرنا القديم*، القاهرة، مكتبة مصر، ١٩٦٢م.
- النايعة الذبياني، *ديوان*، بيروت، ٢٠٠٤م.
- نبيل، عاقل: *تاريخ الادب القديم*، دمشق، ١٩٨٦م.
- وهب ومية، *شعرنا القديم و النقد الجديد*، الكويت دار عالم المعرفة، ١٩٩٧م.

اليقوبى، تاريخ ابن واضح اليقوبى، مطبعة ليدن، ١٨٨٤م.